ابن سعود يبني إمبراطورية

جريسون إل. كيرك(*)

ترجمة: د. محمد بن منصور أبا حسين
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

اسمه عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، وغالبًا ما يختصره المراسلون - ليكون ملائمًا - إلى ابن سعود، ويعني المتحدر من سلالة الأسرة السعودية، ومع أنه الآن في الخامسة والخمسين من عمره، فإنه مؤسس الدولة السعودية الحديثة وسيّدها. وعلى وشك تحقيق ما لم يستطعه أي أمير عربي آخر - على الأقل في العصر الحاضر - وهو توحيد معظم شعوب الجزيرة العربية تحت نظام سياسي واحد. وتكاد سيرته في رومنسيتها وحيويتها أن تكون كما لو أنه قد خرج من صفحات ألف ليلة وليلة.

وبغض النظر عن قيام المملكة أو سقوطها، فقد صار تقريبًا شخصية أسطورية ستشغلُ مغامراته خيال الأجيال القادمة من رواة الحكايات.

وسوف يكون ابن سعود شخصية تاريخية؛ لأن سيرته مزيج عربي للموضوع الشائق والشائع عن شاب طموح مصمّم، يصعدُ إلى المجد والقوة متحديًا العقبات الهائلة.

(*) يعمل جريسون إل. كيرك أستاذًا مساعدًا في جامعة وسكانسون وباحثًا في شؤون الشرق الأدنى، وقد نشر دراسته هذه عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ) في:
Grayson L. Kirk "Ibn Saud builds an empire" Current History 306, 1934, pp. 291-297.

فحينما ولد في سنة ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ)[١] كان ابنًا لوالدين يعيشان في المنفى ولا يملكان بيتًا ولا أرضًا. وما كان لأحد أنْ يراهن حتى ولو بتينة على مستقبله. وحتى حينما سيطر على إحدى المدن لم يؤخذ مأخذًا جديًا. ثم صار سلطانًا لنجد. ويجزم الخبراء في شؤون الشرق الأدنى أنه لن يتوسَع. إلا أن الخبراء الأجانب أخطؤوا، وكذلك أخطأ أعداؤه. فاليوم صار ابن سعود ملكًا على الجزيرة العربية الموحدة، بملايينها الخمسة ومساحتها التي تزيد على مساحات فرنسا وألمانيا وبلجيكا وسويسرا ولكسمبورج مجتمعة.

لقد كان طموحه دينيًا وسلاليًا، فهو مصلح تقليدي يؤججه حماس شديد استطاعت الحركة الوهابية[٢] بمعتقداتها الدينية الإفادة من مساندته لها، فارتقت من موقع الضئيل المضطهد إلى موقع القوي المُعتبر؛ مما أثار بعض المسلمين الذين يعارضون هذه المعتقدات الزاهدة، ومن المحتمل أن يستمروا في معارضتها، فالمعتقد الوهابي[٣] هو إيمان ابن سعود وشريعته.

وربما لا تفلت رعية ابن سعود من العقوبة إن لم تشهد الصلاة، ولن تحج إلا إلى مكة والمدينة[٤]، فالوهابيون يكرهون عبادة أضرحة الأولياء تحديدًا[٥]، ويعدّونها طقوسًا وثنية. ولن يسمح لرعيته أن

(١) الصحيح أنه ولد عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ).

(٢) من الأخطاء الشائعة لدى كثير من الأجانب ممن كتبوا عن المملكة العربية السعودية وصف دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - بالحركة الوهابية، وكأنها تخالف ما كان عليه السلف الصالح. وهذا غير صحيح؛ إذ إن دعوته إعادة لمذهب السلف، وليست مذهبًا جديدًا.

(٣) لم يأت الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدين جديد ينسب إليه، وإنما هو مجدد لعقيدة السلف الصالح. والوهابية ليست عقيدة كما ذكر المؤلف، وتسميتها الوهابية غير دقيقة.

(٤) الحج إلى مكة المكرمة هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وليس في الإسلام أي حج لأماكن أخرى كما ابتدع البعض.

(٥) السعوديون يطبقون تعاليم الدين الإسلامي التي تأمر بتوحيد العبادة لله عز وجل، وعدم عبادة غيره مثلما ظهر في القبور والأضرحة والأشجار وغير ذلك.

تنغمس في تدخين التبغ وتناول المشروبات الروحية مهما كان نوعها. كما تمنع الرعية من التزيّن بالمجوهرات(٦) والحُلي المصاغة من المعادن الثمينة. ومن ضمن المحرمات ارتداء الملابس المترفة وخاصة ما ينسج من الحرير، وكذلك يُحرم القمار وكل لعبة تقوم على عامل الحظ.

فالشريعة المقدسة التي تنص على أن العين بالعين والسن بالسن ما زالت تتضمن أيضًا قطع يد السارق وقتل الزاني(٧).

لقد رفض سكان المدن الإسلامية في شتى أنحاء العالم هذا المذهب الصارم إلا أنه رفض مرتبك؛ لأن القادة الدينيين الوهابيين يستشهدون بسور القرآن الكريم وآياته لدعم كل جزء من عقيدتهم؛ إذ يعتقدون أن الفترة النقية للدين الإسلامي قد حجبتها نعومة حياة المدن ومنكراتها، ولوثتها الأنظمة الغربية البغيضة، فاستشراء هذا التآكل استنادًا إلى الوهابية يجب التخلص منه لاستعادة صفاء الدين الأول. إنه من الواضح أن في ذلك تكرارًا للقصة القديمة الدالة على كراهية بدو الصحراء الذين يعيشون حياة قاسية محفوفة بالمخاطر لمؤسسات سكان المدن وسلوكهم. ومن جهة أخرى فهي عقيدة تساعد على التحكم في البدو الذين يصعب إخضاعهم.

لم تكن الصلة بين الأسرة السعودية والمعتقد الوهابي شيئًا جديدًا، فقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك حينما لجأ محمد بن عبدالوهاب الذي كان الشيخ والمؤسس المضطهد للحركة الإصلاحية إلى حمى الأمير محمد بن سعود، الحاكم الصحراوي الثانوي للجزء الشمالي من وسط الجزيرة العربية، ولم يقتصر محمد بن سعود على منح اللجوء لابن عبدالوهاب، وإنما وضع قوته السياسية تحت تصرفه، وجاهد لإرغام القبائل المجاورة على قبول تعاليم ابن عبدالوهاب

(٦) التحريم للرجال فقط.

(٧) ما أورده الكاتب هنا من تعاليم الدين الإسلامي، وفيها تفصيل سطرته كتب الفقه، وليست معتقدات جديدة كما رآها.



واتِّباعها. وبعد وفاة محمد بن سعود سنة ١٧٦٥م (١١٧٩هـ) قاد ابنه ووريثه عبدالعزيز الأول حروبًا أدّت تدريجيًا إلى بسط نفوذه على مجمل وسط الجزيرة العربية، وخاصة منطقة شمر ونجد.

ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادي كان الحكم السعودي راسخًا إلى درجة أن سلطان تركيا - صاحب السيادة الاسمية على الجزيرة العربية - بحث عمن يستطيع أنْ يسحق هذا القادم الجديد، ووجد بغيته في شخص محمد علي - نائبه على حكم مصر - الذي ندب نفسه لسحق الوهابيين، وحيث إن السلطان يضمر كرهًا لمحمد علي وللوهابيين معًا فإنه سيكون المنتصر في كلتا الحالتين بغضّ النظر عن هزيمة أيّ منهما.

وبعد صراع طويل انتصرت القوات المصرية، وقضي نهائيًا على القوة الدينية للأسرة السعودية، واستسلم عبدالله، الذي خَلَف والده عبدالعزيز[8]، واقتيد مصفدًا بالسلاسل إلى إسطنبول حيث أُعدِم، وهرب أبناؤه الباقون مع عائلاتهم، إلا أن بعضهم وقع أسيرًا فنقل إلى مصر، بينما نجا البعض الآخر، واختفى - إلى حد ما - حكم الأسرة السعودية والمذهب الوهابي.

وبدأ خسوف الحكم السعودي منذ سنة ١٨١٨م (١٢٣٤هـ)، وهي سنة الكارثة، إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، كما لو كان خسوفًا دائمًا إلا أنه بين الحين والآخر يظهر أحد أفراد الأسرة السعودية ليحاول استعادة الحكم، فتبوء دائمًا محاولاتهم بالفشل. وخلال تلك الفترة ظهر قادة وعائلات مختلفة ذات أهمية سياسية، وكان أبرزها عائلة آل رشيد من قبيلة شمّر، التي كانت بارعة بما فيه الكفاية في عدم منازعة السيادة التركية، ولم يكن لدى هذه الأسرة معتقدات دينية تثير عداوة الآخرين، وصارت سلطة آل رشيد على

---

(٨) الصحيح أن الإمام عبدالله خلف الإمام سعود بن عبدالعزيز، وليس الإمام عبدالعزيز، رحمهم الله جميعًا.

وسط الجزيرة تقريبًا دون منازع خلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر. إلا أن أسلوب حكمهم القاسي نفَّر الناس منهم.

وفي هذه الحالة اليائسة ولد عبدالعزيز الذي كان والده يعيش منفيًا في بلاط الشيخ مبارك - حاكم الكويت - تلك المنطقة الساحلية الصغيرة الواقعة بالقرب من نهاية الخليج العربي. وعاش الشاب عبدالعزيز بن سعود في هذا الجو خلال السنوات العشرين الأولى من عمره قبل أن يبدي أي علامة تدل على تصميمه على استعادة ملك أجداده المفقود. ومع نمو طموحه كان نادرًا ما يفكر في الحكم التركي البعيد، إذ إنّ جل اهتمامه كان منصبًا على مواجهة العقبة المباشرة المتمثلة في أسرة آل رشيد الحاكمة.

تتيح أولى مغامرات ابن سعود التعرف جيدًا على شخصيته وإرادته، ففي سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ) حينما كان في الحادية والعشرين من عمره قاد حملة صغيرة تتكون من أربعين رجلاً في الصحراء، هدفها ظاهريًا الاشتباك مع أي قوة لآل رشيد، وحالما أوغل في الصحراء قاد حملته الصغيرة جدًا إلى الرياض، كبرى مدن نجد والعاصمة السابقة للأسرة السعودية، وأخفى ثلاثين رجلاً في حقول النخيل الواقعة في إحدى الواحات القريبة من مدينة الرياض، وتسلّل مع تسعة من مساعديه عبر أطلال الرياض المهجورة حتى وصلوا إلى مدخل أحد المنازل المقابلة للحصن الذي يقصده عادة نائب ابن رشيد على حكم الرياض ليلاً لأغراض أمنية، واقتحموا المنزل، وأمضوا ليلتهم في شرب القهوة وقراءة القرآن. وعند الفجر خرج الحاكم يصحبه حراس قليلون، فهجم العشرة عليهم، وقتلو الحاكم، واستولوا على الحصن، وأعلنوا لسكان المدينة المذهولين والبالغ عددهم (٢٠,٠٠٠) نسمة أن انقلابًا عسكريًا قد حدث. ونجح ابن سعود في الاستيلاء على أولى مدنه ولم يخسرها بعد ذلك(٩).

(٩) التفصيلات التي يوردها الكاتب هنا غير دقيقة من حيث عدد المشاركين، ويرجع في هذا الشأن إلى: فؤاد حمزة، البلاد العربية السعودية، ط٢، الرياض، ١٣٨٨هـ، ص ١٦.

ولكن الاستيلاء على مدينة واحدة - حتى وإن كان جريئًا - لم يكن كافيًا لضمان مستقبله. وكان وضعه خلال السنوات القليلة التالية متقلقلاً. وساعدت تركيا ابن رشيد الساخط، وبدا مستبعدًا أن يتمكن الشاب ابن سعود من الاحتفاظ بما استولى عليه. وبطريقة أو بأخرى نجح في الاحتفاظ بالمدينة. وفي آخر الأمر توقف الأتراك عن مساعدة ابن رشيد.

وعلاوة على ذلك، نشب صراع مرير على السلطة بين آل رشيد، وأفاد ابن سعود من ارتباك أعدائه، واستخدم القوة والخدعة؛ ليحصل على ولاء البدو في المنطقة، ويعزّز موقعه، وفي سنة ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ) صار ابن سعود الحاكم المعترف به على نجد والشخصية المعتبرة في أنحاء الجزيرة العربية الأخرى.

تقاطرت سلالة العائلة السعودية المتناثرة إلى نجد، وحاول بعض المتحدرين مباشرة من سلالة عبدالعزيز الأول(١٠) الاستئثار بالحكم، وحدث هذا الخطر الأخير من نوعه في سنة ١٩١٢م (١٣٣٠هـ)، وحينما تم القضاء عليه عرض ابن سعود بحكمته على ابن عمه الذي قاد هذه المؤامرة أنْ يختار بين المنفى أو الانضواء في خدمته. فاختار ابن عمه الخيار الثاني. ومنذ ذلك الحين صار مؤيدًا متحمسًا للوضع القائم.

كيف يمكن إنشاء دولة عربية دائمة مما هو متوافر ومماثل؟ شغل هذا السؤال ذهن ابن سعود. فقد كانت إحدى العقبات ذات صلة بطبيعة البدو، فالقبيلة هي الوحيدة القادرة على السيطرة على البدو الأقوياء. ومع أنه من المؤكد إقناعهم أن يتحدوا مؤقتًا لأغراض عسكرية بشرط أن تكون حصتهم من الغنيمة كبيرة بما فيه الكفاية، وأن يحقّق القائد هدفًا دينيًا عزيزًا عليهم وهذا من الممكن أن

---

(١٠) الصحيح أبناء الإمام سعود.

يوحّدهم مؤقتًا؛ فإن هذه الروابط لا تضمن حلاً دائمًا لدولة حديثة. ولذا فقد استنتج ابن سعود أنه على الرغم من أن شخصيته، وغنائم الأعداء والرغبة في نشر المعتقد الوهابي قادرة على توحيد البدو مؤقتًا، فإن تغيير العادات البدوية أمر ضروري؛ ليتمكن من إقامة أسس راسخة لدولته.

تجبن الروح الأقل عزيمة حينما تواجهها خيارات كهذه، وقد تترك الأمور لمشيئة الله[11]، إلا أن ابن سعود لم يفعل ذلك، فقد قرّر أن يحاول دعم ما يُعرف بحركة الإخوان الذين يتحتم على المنتمين إليها أن يكونوا كالإخوة الأشقاء، وأن لا تعني لهم علاقات الدم والقبيلة شيئًا، فقوانين الشريعة الإسلامية تحكمهم، وحتّم عليهم التخلي عن حياة البدواة، وأن يستبدلوا بخيامهم الصحراوية منازل للسكنى الدائمة في قرى (هِجَر) يمكن أن تزرع فيها أشجار النخيل، وتُتعهد بالعناية. وتمنح هذه الهجر المساعدات الحكومية مجانًا، كما تساعد المعونات المالية من خزينة ابن سعود في بناء المساجد، ويحصل كل واحد من الإخوان على إمدادات مجانية من الأسلحة والذخيرة إذا التزموا الدفاع عن حاكمهم ابن سعود. ومنحت هذه الصفقة ابن سعود نواة لقواته العسكرية الموثوقة الدائمة، وازداد عدد الإخوان سريعًا، ومع أنه لم ينتم إليها كل الناس، فإن هناك أكثر من سبعين هجرة، وبلغ عدد الإخوان مئة ألف نسمة.

تجبن الروح الأقل عزيمة حينما تواجهها خيارات كهذه

وحينما بدأت الحرب (العالمية الأولى) أظهر ابن سعود - الذي كان مُعترفًا به في ذلك الوقت سلطانًا على نجد - دهاءه المتوقع، ومع أنه لم تتح له الفرصة لدراسة السياسات العالمية المعقدة، فقد كوّن منذ زمن بعيد سياسته الخارجية البسيطة التي خدمته جيدًا، وذلك

(١١) كل مسلم يخضع لمشيئة الله وقدره، لكن لا ينبغي التواكل وعدم العمل.

بأن يتخذ قراراته المستقلة، ويناوئ الأتراك دائمًا، ويكون صديقًا لبريطانيا.

والآن يدعم عدوه القديم ابن رشيد تركيا وحلفاءها؛ ولذا وافق ابن سعود على دعم بريطانيا وحلفائها؛ إلا أن هذا الدعم اقتصر على اتخاذ موقف محايد، فاعترف البريطانيون باستقلاله القائم فعلاً، وصبّوا في خزينته الفقيرة معونة سنوية مقدارها (٦٠,٠٠٠) ستون ألف جنيه إسترليني لمدة ست سنوات. إنها تجارة رابحة أن تكون صديقًا لدولة سخية في عطائها[١٢].

ثم حوّل المحسنون إلى ابن سعود - الذين كانوا مرتاحين لصفقتهم معه - نظرهم نحو غرب الجزيرة العربية حيث يوجد أمير آخر طموح لا يريد أن يستمع إلى رنين الذهب البريطاني هو الشريف حسين أمير منطقة الحجاز الواقعة على الساحل الضيق الممتد على البحر الأحمر، وتكتسب الحجاز أهميتها من المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان الأتراك يحكمون الحجاز فعليًا، وليس اسميًا، وكان الشريف حسين قد عُيّن أميرًا على الحجاز سنة ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) حينما كان في الستين من عمره، فأيقظ فيه هذا الشرف غير المتوقع طموحًا نائمًا منذ زمن طويل.

لقد كان موظفو الحكومة البريطانية أسخياء في وعودهم لهذا الشيخ المبتهج. ومن المؤكد أن غموض التزاماتهم كان متعمدًا، مما فتح لهم الطريق للتنصّل؛ إذ استخدموا غموض التزاماتهم فيما بعد بصفاقة ووقاحة، فقد وعد البريطانيون إعطاء العرب جزيرة العرب، وظن حسين أن الحلفاء سيدعمون طموحه ليصير ملكًا. وبسبب هذه الوعود رفع علم الثورة ضد الحكم التركي، وقاد أبناؤه - الذين

---

(١٢) قدمت بريطانيا هذا الدعم لتحقيق مصالحها من حيث السيطرة على الملك عبدالعزيز، وعدم تعرضه للمناطق التي ترى بريطانيا أهميتها، إلى جانب أن ذلك هو اعتراف بقوة الملك عبدالعزيز المتنامية آنذاك؛ علاوة على أن ذلك الدعم يقع ضمن إستراتيجية بريطانيا لكسب حلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى.

ساعدهم إلى حد كبير الجنرال النشيط تي إي لورنس - القوات المنتصرة نحو الشمال. وبالمقابل اعترفت بريطانيا بحسين ملكًا على الحجاز، ومنحته معونة ذهبية تساوي ستة ملايين جنيه إلى أن تم إيقافها فيما بعد. إن الثورة في الصحراء مربحة إلا بالنسبة لدافع الضرائب البريطاني.

وبعد انتهاء الحرب (العالمية الأولى) لم يكن وضع ابن سعود مبشرًا بالأمل. فحسين - منافسه القديم - صار ملكًا مستقلاً. ونُصب أبناؤه في مواقع ربما تشكّل تهديدًا لابن سعود. ففي عام ١٩٢١م (١٣٣٩هـ) صار عبدالله ملكًا على الأردن، ونُصب فيصل ملكًا على دولة العراق الجديدة. وأسوأ من ذلك أن ابن رشيد عدوه اللدود قد أعلن استقلاله، وينوي البريطانيون - الذين يرون حاجة ماسة إلى قيام دولة عازلة بين العراق ونجد - الموافقة على استقلال ابن رشيد.

ولكن الخبراء أخطؤوا على نحو محزن، فإذا كانوا قد اعتقدوا كما حصل أن ابن سعود بسجلّه الحافل بالانتصارات السابقة لن يفعل شيئًا، ويترك أعداءه يتحصنون، فإنهم قد أساؤوا التقدير. وعلاوة على ذلك فقد كان الحظ بجانب ابن سعود، فقد خدمته الأحداث المتسارعة، واستطاع لمرة أخرى أن يستفيد من الفرصة السانحة.

فمثلاً، كانت هناك حادثة الخرمة. فالحدود بين الحجاز ونجد لم تكن ثابتة، ويدّعي كلاهما ملكيته واحات عدة قيّمة. وقد حاول حسين الاستيلاء على الخرمة ثلاث مرات إلا أن محاولاته باءت بالفشل. وأخيرًا طلب المساعدة من لندن، وسمحت الحكومة البريطانية له بالاستيلاء على الخرمة، وحذّروا ابن سعود بأنهم سيقطعون المعونة عنه في حالة تدخله، وابتهج حسين بهذا الدعم المتميّز. فأرسل في الحال حملة عسكرية قوية للاستيلاء على واحة الخرمة، إلا أن ابن سعود لم يعبأ بالمعونة، وعدّ الخرمة من ممتلكاته،

وزحف فرسانه الوهابيون في هدأة الليل على رجال حسين، وانتصروا عليهم. وبذلك وضع نهاية لقضية الخرمة إلى الأبد، ولم تُقطع المعونة!

وما كاد غضب حسين بعد هذه الهزيمة يفثأ حتى أظهر ابن سعود مرة أخرى قوته في أثناء قتاله في حائل. فقد انتظر سنين عدة فرصة القضاء على أعدائه آل رشيد، وأخيرًا لاحت له الفرصة. ففي أثناء مسابقة في الرماية عقدت بالقرب من حائل، عاصمة منطقة شمر لم يصوب أحد الرماة نحو الهدف، وإنما باتجاه رأس حاكمه. وأتاح ارتباك آل رشيد بعد الاغتيال فرصة سانحة لابن سعود؛ فحشد قواته، وزحف في الحال إلى شمر، وأسر أقارب الأمير المقتول، وضمّ منطقة شمر إلى مملكته. وبهذا انتهى حكم آل رشيد نهاية مخزية، وانتقم السلطان الوهابي المراوغ لأسلافه، وفي الوقت نفسه دقّ إسفينًا (وتدًا) حادًا بين العراق والحجاز، ووحّد كل وسط الجزيرة العربية لأول مرة بعد أجيال عدة تحت حاكم واحد.

وما زال القدر يمنح هداياه لابن سعود، فقد بدأ حسين الذي يناهز الآن سبعين عامًا في إزعاج حماته البريطانيين. فقد أغاظه الحلفاء حينما فشلوا في تنفيذ وعودهم والتزاماتهم في أثناء الحرب، فصار يتصرف معهم أحيانًا بعنجهية، وأحيانًا بوقاحة مشاكسة. وكان حكمه نزويًا، وإداريوه فاسدين جدًا، وتنقصهم الكفاءة العلمية. وربما أنّ أنينَ دافعي الضرائب وتذمرَ الحجاج من الضرائب الباهظة وتفجعَهم قد وصل إلى آذان لندن الصماء، ولكنها وجدت أذنًا صاغية عند ابن سعود. ومرة أخرى انتظر الوقت الملائم. ومع أن السخط الذي أثارته معاملة حسين للحجاج كان في صالح ابن سعود، إلا أنه لم يكن كافيًا للخطط القوية التي فكّر فيها، لقد كان ابن سعود في حاجة إلى ما هو أكبر من مجرد السخط، وجاء هذا الشيء الأكبر سريعًا ودونما توقع!

فقد قرر مصطفى كمال ومستشاروه في أوائل عام ١٩٢٤م (١٣٤٢هـ) قطع الصلة بين حكومة الجمهورية التركية الجديدة والخلافة. فقد كان السلطان التركي هو الخليفة أو القائد الروحي للمسلمين في أيام الإمبراطورية الأخيرة. وحينما حاول الأتراك إقامة ترتيب تجريبي تقوم الحكومة فيه بتعيين خليفة لا يملك سلطة دنيوية لم يرق ذلك للجميع، وكانت النتيجة فصلاً تامًا بين الدين والدولة.

يرى بعض الباحثين أن يد حسين الهرمة امتدت بلهفة للجائزة، بينما يرى البعض أن ابنه الأمير عبدالله قد أوحى إليه إعلان نفسه خليفة للمسلمين. ومهما يكن الأمر فقد أعلن حسين نفسه خليفة بعد ثلاثة أيام من قرار الحكومة التركية. وبالطبع فإن تحركًا كهذا قد سبّب ضجة في أرجاء العالم الإسلامي، فرضي البعض بالنظام الجديد مذعنًا، إلا أن سخط المصريين والهنود كان مريرًا، ولم يكن لغضب الوهابيين حدّ. وحدث بين حسين وابن سعود صدع لا يلتحم، وجعل قيام الحرب بينهما أمرًا محتومًا.

والآن ليس ثمة تأثير مضاد لإرجاء أو تفادي الصراع، فقد قطع البريطانيون المعونة عن المتنافسين في شهر مارس ١٩٢٤م (شعبان ١٣٤٢هـ)، وليس هناك ما يخسره ابن سعود لو هجم على الحجاز. لذا قاد جيوشه إلى ميدان الحرب في أواخر أغسطس (صفر) بعد أن امتدح المسلمون الهنود موقفه. ولم يكن ثمة شك في نتائج المعركة، فقد حاول حسين بكل ما يستطيع إنقاذ العرش لعائلته؛ فتخلى في شهر أكتوبر (ربيع الأول) عن العرش لابنه علي، وفي الحال سيطر السعوديون على جميع الحجاز ما عدا ميناء جدة. وبعد سنة من عمليات الحصار المتقطع استسلمت المدينة، وهرب الملك علي ومساعدوه إلى المنفى، وبذلك انتهت الحرب.

كان ابن سعود على معرفة بأن المسلمين في كل مكان يترقبون ما سيقوم به بعد ذلك. والآن، كما هو الحال من قبل، لم تُعمِهِ انتصاراته

الحربية عن وضعه الحساس كقائد وبطل لأقلية تعتنق مذهبًا لا يقبله معظم أتباع الرسول ﷺ(١٣).

فقد تمهل خلال حصار جدة، وعمل على حماية الحجاج، وأجرى اتصالات مع الوفود الإيرانية والهندية المسلمة التي حضرت لمعرفة ما إذا كانت الروايات التي تصف الوهابيين بالتعصب، وهدم الأضرحة، وانتهاك الحرمات حقيقة أم كذبًا؟ فما كان منه إلا أن طمأن هذه الوفود عما يعتزمه من خطط، وأخبرهم أنه بمجرد انتهاء الحرب سوف يعقد مؤتمرًا يدعو إليه الشخصيات الإسلامية الرفيعة؛ لإطلاعهم على الأوضاع في المدينتين المقدستين. وفي بداية يناير ١٩٢٦م (جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ) أعلن قراره بتولي السلطة في الحجاز(١٤). وبعد سنة استجاب لطلب شيوخ قبائل نجد بأن يغيّر لقبه الرسمي من سلطان إلى ملك. وبعد ذلك جمع كل ممتلكاته تحت اسم رسمي يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية.

وحينما عقد المؤتمر الإسلامي لم يكن ثمة أمور مهمة يتم مناقشتها. فمسألة الخلافة أرجئ النظر فيها إلى مؤتمر قادم يقام في القاهرة، وقَبِلَ سكان المدينتين المقدستين ابن سعود حاكمًا جديدًا، وناقش المؤتمر أمورًا أخرى تهم الجميع، واتخذت حيالها الحلول المختلفة، ولم يتخذ أيّ إجراء يحد بأي شكل من الأشكال من سلطة ابن سعود.

وفي الواقع فإن التحولات التي حدثت في الجزيرة العربية تعدّ أمورًا استثنائية. فقد طُهِّرت الإدارة الحجازية القديمة من معظم

---

(١٣) مذهب الملك عبدالعزيز - رحمه الله - هو مذهب أهل السنة والجماعة، وعدم قبول البعض بهذه الدعوة الإصلاحية التي دعت وما تزال إلى تجديد الدين عائد إلى أمور سياسية.

(١٤) ما حدث هو أن أعيان مكة وعلماءها بايعوا الملك عبدالعزيز - رحمه الله - بالملك في الحجاز.

فسادها، وتقلصت حركات تمرد المواطنين بسبب نظام يجعل كل قبيلة مسؤولة عن المحافظة على السلام والأمن في منطقتها. وفي حالة فشل هذا النظام وعدت القبائل المجاورة أن تقوم بالمبادرة لمعاقبة المتمردين، وأن تقدّم تقريرًا لابن سعود عن طبيعة الجريمة المقترفة، والعقاب الذي أوقعوه بمرتكب الجريمة. وفي حالة فشلهم يصبح من حق ابن سعود أنْ يوجه جيشه لمعاقبتهم بشدة. وحافظ هذا التهديد على السلم والنظام بشكل جيّد.

كما أديرت الشؤون الخارجية أيضًا ببراعة مماثلة، فقد قبلت بريطانيا العظمى الحكومة الجديدة بكل لباقة، ووقّعت معاهدة تعترف فيها باستقلال المملكة التام. وحتى الخلافات الصعبة مع العراق اتفق عليها أخيرًا، وأصبح الملك فيصل قبل موته على علاقة طيبة مع هازم أبيه.

وآخر تهديد واجهته مملكة ابن سعود كان مع اليمن، فقد ظل ذلك البلد الصغير الواقع جنوب الحجاز على ساحل البحر الأحمر مصدر خطر محتمل. وكان قبل الحرب العالمية (الأولى) يخضع اسميًا لتركيا، ولم يعترف باستقلاله بعد الحرب سوى إيطاليا. ولليمن قيمته بسبب تربته الخصبة وثرواته المعدنية. وحينما بسط الملك ابن سعود حكمه على منطقة عسير المجاورة لليمن، كان الاستياء اليمني عظيمًا إلى درجة أنه يصعب تجنب صدام عسكري. وحينما حدث الصدام بينهما خلال الصيف الماضي (١٣٥٣هـ) أجبر حاكم اليمن على توقيع معاهدة سلام، وتعهد بعدم إزعاج جاره في المستقبل مقابل اتفاقيات سخية، وتضمنت المعاهدة إقامة علاقات صداقة وتعاون حول القضايا ذات المصالح المشتركة.

وهكذا وصل ابن سعود في سنة ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ) إلى نهاية طريق طويل، فالذي كان متجولاً بلا وطن أصبح الآن حاكمًا لدولة عظيمة



بناها بنفسه، وحقق الوحدة والسلام في منطقة بليت لوقت طويل بالفوضى السياسية. والزمن وحده سوف يخبر ما إذا كان سينجح في تنفيذ خطته القريبة إلى قلبه، وهي إقامة شعور صادق ودائم للقومية العربية(١٥).

(١٥) ماحدث بعد ذلك يؤكد تحقيق ما طمح إليه الملك عبدالعزيز من دعم القضايا العربية، ودعم الاستقرار والأمن في بلاده وتطويرها، والارتقاء بمستوى شعبه.